بملك الألمان وخوفوه من سيف الدين وكثرة عساكره وتتابع امداده ، وأنه ربما ملك دمشق فلا يبقى لهم معه مقام بالساحل ، فأجابهم الى الرحيل عن دمشق وسار عنها . ورحل فرنج الساحل وتسلموا حصن بانياس من معين الدين ، وبقى حصن بانياس مع الفرنج حتى فتحه نور الدين محمود بن زنكي رحمه الله تعالى . ذكر الحافظ أبو القاسم بن عساكر في تاريخ دمشق ، قال : حكى لي بعض الائمة العلماء ، أنه رأى الفندلاوي في المنام ، فقال له اين انت . قال : في جنات عدن ( على سرر متقابلين .) ( ٦٦ ).

## ذكر فتح نور الدين حصن العريمة

لما رحل الفرنج عن دمشق ، سار معين الدين أنر الى بعلبك ، وأرسل إلى نور الدين وهو مع أخيه سيف الدين ، فسأله أن يحضر عنده فيجتمع به ، فسار إليه واجتمعا فوصل إليهما حينئذ كتاب القمص صاحب طرابلس ، يشير بقصد حصن العريمة وأخذه ممن فيه من الفرنج . وكان سبب ذلك ، أن ولد الفنش صاحب طليطلة ، خرج مع ملك الالمان الى الشام وتغلب على العريمة واخذه من القمص ، وأظهر أنه يريد أخذ طرابلس منه أيضا . وجد هذا الذي ملك العريمة ، هو الذي غزا افريقية وفتح مدينة طرابلس الغرب فلما استولى هذا على العريمة ، كاتب القمص نور الدين ومعين الدين في قصده ، فسار إليه مجدين فصبحاها ، وكتبا الى سيف الدين وهو بحمص يستنجدانه ويطلبان المدد ، فامدهما بعسكر جرار ، وجعل مقدمه عز الدين أبا بكر الدبيسي ، فحصروا الحصن وبه ابن الفنش ، فامتنع بحماه ، فزحف المسلمون اليه ، وتقدم النقابون الذين مع نور الدين فنقبوا السور ، فلما رأوا الفرنج ذلك ، اذعنوا واستسلموا ، والقوا مابايديهم فملك المسلمون الحصن ، وأخذوا كل من فيه من رجل وصبي وامرأة وفيهم ابن الفنش ؛ وأخربوا الحصن وعادوا الى سيف الدين .

## ذكر ملك سيف الدين قلعة دارا

قد ذكرنا أن أتابك الشهيد رضي الله عنه ملك دارا ( ٦٧ ) وبقيت بيده إلى أن قتل ، فلما قتل أخذها حسام الدين تمرتاش صاحب ماردين ، فلما كان في سنة أربع وأربعين وخمسمائة ، سار سيف الدين اليها وحصرها ، وقاتل من بها وضيق عليهم فملك الحصن ، واستولى على كثير من بلد ماردين بسببها .

## ذكر حصار قلعة ماردين الشهباء

ثم إن سيف الدين سار إلى ماردين وحصرها ، عازما على أن يدخل ديار بكر ويستعيد ماأخذ من البلاد بعد قتل والده الشهيد رضي الله عنه ، فأقام عليها يحاصرها ، وتفرق العسكر في بلدها ينهبون ويخربون ، فلما نظر حسام الدين صاحبها إلى مايفعل العسكر في بلاده ، قال : كنا نشكو من أتابك الشهيد وأين أيامه ، فلقد كانت أعيادا ، قد حصرنا غير مرة فلم يتعد هو وعسكره حاصل السلطان ، ولاأخذوا كفا من التبن بغير ثمنه .

رب يوم بكيت فيه فلما
صرت في غيره بكيت عليه

ثم أنه راسل سيف الدين وصالحه على ماأراد ، وزوجه ابنته الخاتون ، ورحل سيف الدين عن ماردين وعاد إلى الموصل ، وجهزت خاتون وسيرت اليه ، فوصلت الى الموصل وهو مريض قد أشرف على الموت ، فتوفي ولم يدخل بها . فلما توفي تزوجها أخوه الملك قطب الدين مودود ، فكان أولاده الملوك منها .

## ذكر غزو الفرنج بيغرى وما جرى لهم فيها

في سنة ثلاث وأربعين وخمسمائة : سار نور الدين محمود بن الشهيد رضي عنهما إلى بيغرى ، وقد اجتمع بها الفرنج في قضهم وقضيضهم ، وقد عزموا على قصد بلاد الاسلام . فلما سمع نور الدين خبرهم سار نحوهم ، فالتقوا هنالك واقتتلوا اشد قتال ، ثم أنزل الله تعالى نصره على المسلمين ، وإنهزم الفرنج واخذتهم سيوف المسلمين ، فكانوا بين قتيل واسير واما السالم منهم من المعركة فقليل ، ولهذا يقول القيسراني ( ٦٩ ) في هذه الوقعة من قصيدة في اولها :

ياليت ان الصد مصدود
اولا فليت اليوم مردود

الى متى يعرض عن مغرم
في خده للدمع اخدود

ومنها في ذكره :
وكيف لاتثني على عيشنا ال
محمود والسلطان محمود

وصارم الاسلام لاينثني
الا وشلو الكفر مقدود

مناقب لم تك موجودة
الا ونور الدين موجود

وكم له من وقعة يومها
عند ملوك الشرك مشهود

والقوم اما مرهق ضرعة
أو موثق بالقد مشدود

## ذكر وفاة سيف الدين غازي بن اتابك عماد الدين زنكي

في أواخر جمادى الاخرة من سنة أربع وأربعين وخمسمائة ، توفي سيف الدين غازي بن أتابك عماد الدين زنكي بن اقسنقر . وكان مرضه حمى حادة ، فأرسل إلى بغداد وأحضر أوحد الزمان الطبيب ، ولم يكن في زمانه أعرف منه بالطب فلما رأى شدة مرضه علم أن الاغلب عليه العطب ، فأعلم جمال الدين وزين الدين حاله ، وقال لهما : ليس له علاج غير شيء واحد ، وهو خطر فعالجه ، فتوفي . وكان عمره نحو اربعين سنة . وكان من أحسن الناس صورة ، ودفن بالمدرسة التي أنشأها بالموصل ، وخلف ولدا ذكرا اخذه عمه نور الدين محمود ورباه واحسن تربيته ، وزوجه بابنة عمه قطب الدين مودود ، فلم تطل أيامه وأدركه أجله في عنفوان شبابه فتوفي . وانقرض عقب سيف الدين رحمه الله تعالى .

## في ذكر بعض سيرته وأخلاقه رحمه الله

كان رحمه الله تعالى كريما شجاعا ، عاقلا ، ذا حزم وعزم ، ولما توفي والده الشهيد ، استوزر جمال الدين أبا جعفر المقدم ذكره ، وحكمه وأعطاه عشر دخل بلاده ، وأقر زين الدين علي على ولاية قلعة الموصل ، وكان له إربل ، فزاد اقطاعه واعلى محله ، واقطع عز الدين أبا بكر الدبيسي جزيرة ابن عمر وجميع قلاع الزوزان وغيرهما ، وقرر أمر المملكة فلم يتغير شيء بقتل والده .

حكى لي والدي : أنه كان راتبه كل يوم لسماطه مائة شاة بكرة ، ينزل الجند في خدمته كل يوم ويأكلون الطعام ، وكان له سماط آخر

النهار ، يذبح له كل يوم ثلاثون رأسا من الغنم الجيد ، سوى الخيل والبقر .

وهو أول من حمل على رأسه سنجق من اصحاب الاطراف ، فانه لم يكن فيهم من يفعله لاجل السلاطين السلجوقية .

وهو أول من أمر عسكره أن لايركب أحدهم الا والسيف في وسطه والدبوس تحت ركابه سفرا وحضرا ، ولم يكن يفعل قبل ذلك في سائر البلاد إلا في السفر ، فلما أمر هو عسكره ، اقتدى به غيره من أصحاب الاطراف .

وبنى بالموصل المدرسة الاتابكية العتيقة ، وهي من أحسن المدارس وإوسعها ، وجعلها وقفا على الفقهاء الشافعية والحنفية نصفين .

وبنى أيضا رباطا للصوفية بالموصل وهو الرباط المجاور لباب المشرعة ، ووقف عليها الوقوف الكثيرة .

قال : وكان جمال الدين ، وزين الدين ، وعز الدين الدبيسي ، قد اتفقت كلمتهم في ايامه ، واضطر الى مداراتهم ، لانهم كانوا يخوفونه السلطان ، فلما طال ذلك عليه ، عزم على المسير الى السلطان مسعود وقال لهم : أنا كنت من اقرب الناس الى السلطان ، ومنزلتي عنده مشهورة ، ولابد من المسير اليه ، فخافوه إن هو سار إليه ، أن يعود وقد أمن جانبه فلا يبقي عليهم ، فكانوا لايزالوا يمنعونه عما يريده من ذلك إلى أن أدركه أجله .

وكان كريما ، قصده شهاب الدين الحيص بيص وامتدحه بقصيدته المشهورة التي أولها يقول « شعر »

الام يراك المجد في زي شاعر
وقد نحلت شوقا فروع المنابر

وهي من جيد شعره ، فأعطاه جائزته ألف دينار أميري ، سوى الاقامة والتعهد مدة مقامه ، وسوى الخلع والثياب من سائر الأنواع

## في ذكر ملك اخيه قطب الدين

لما توفي سيف الدين غازي ، كان أخوه قطب الدين مودود بالموصل ، فاتفقت كلمة جمال الدين وزين الدين على تمليكه طلبا للسلامة منه ، فانه كان لين الجانب ، حسن الاخلاق ، كثير الحلم ، كريم الطباع ، فأحضروه من داره وحلفوه لهم وحلفوا له ، ونزل بدار المملكة وحلف له الأمراء والأجناد ، واستقر في الملك ، واطاعه جميع ماكان لاخيه سيف الدين ، لان المرجع كان في جميع المملكة الى جمال الدين وزين الدين ، ولما ملك واستقر في الملك ، تزوج الخاتون ابنة حسام الدين تمرتاش التي كان سيف الدين تزوجها ولم يدخل بها ، فولدت لقطب الدين أولاده الذين ملكوا الموصل بعده على مانذكره . ولم يملكها من اولاد قطب الدين احد من غير اولادها

## في ذكر فاطمة ابنة عبد الملك

## معرفة حسنة تذكر

قد ذكر أصحاب التواريخ والمعارف ، أن فاطمة بنت عبد الملك بن مروان بن الحكم ، وامها عاتكه بنت يزيد بن معاوية بن ابي سفيان ـ جد امها وابيها ـ ، وابنه يزيد ـ وهو جدها لامها ـ ، ومعاوية بن يزيد ـ وهو خالها ـ ، ومروان بن الحكم ـ وهو جدها لابيها ـ ، وعبد الملك بن مروان ـ وهو أبوها ـ ، والوليد ، وسليمان ويزيد ، وهشام أولاد عبد الملك ـ وهم أخوتها ـ ، وعمر ابن عبد العزيز ـ وهو زوجها ـ والوليد بن يزيد بن عبد الملك ـ وهو ابن أخيها ـ ، ويزيد وابراهيم ابنا الوليد بن عبد

الملك ـ وهما ابنا اخيها ـ ايضا . ولم يبق من بني أمية الذين ولوا الأمر ، من كان يحرم عليها ان تضع خمارها عنده ، الا مروان ابن محمد ، المعروف بالحمار لاغير . وهذه الخاتون كان يحل لها أن تضع خمارها عند خمسة عشر ملكا ، وهم : نجم الدين ايلغازي بن أرتق ـ وهو جدها لابيها ـ ، وسقمان بن أرتق ـ وهو عم أبيها ـ ، وحسام الدين تمرتاش ـ وهو أبوها ـ ، ونجم الدين ألبي ـ وهو أخوها ـ ، وقطب الدين ايلغازي بن ألبي ـ وهو ابن أخيها ـ وحسام الدين ، وناصر الدين ـ وهما اولاد قطب الدين ـ وسيف الدين غازي ، وقطب الدين مودود ابنا الشهيد زنكي ـ وهما زوجاها ـ وعماد الدين الشهيد ـ وهو حموها ـ وولداها سيف الدين غازي ، وعز الدين مسعود ـ ابنا قطب الدين مودود ـ ونور الدين أرسلان شاه بن عز الدين مسعود ـ وهو ابن ابنها ـ وابنه الملك القاهر عز الدين مسعود بن نور الدين ومعز الدين سنجر شاه بن سيف الدين غازي ـ وهو ابن ابنها ـ وابنه معز الدين محمود ، وعماد الدين زنكي بن قطب الدين مودود ـ وهو ابن زوجها ـ وولده قطب الدين محمد .

## ذكر ملك نور الدين محمود بن الشهيد مدينة سنجار وماكان بينه وبين أخيه قطب الدين

لما ملك قطب الدين الموصل والبلاد الجزرية بعد وفاة أخيه سيف الدين غازي ، كان نور الدين محمود بحلب ـ وهو أكبر من قطب الدين ـ فكاتبه بعض الأمراء وطلبوه اليهم ، وكأنهم حسدوا زين الدين وجمال الدين ، وأرادوا أن يحكم عليهم ابن صاحبهم ، وكان فيمن كاتبه ، المقدم والد شمس الدين ابن المقدم ـ وهو حينئذ دزدار سنجار ـ واستدعاه ليسلم إليه سنجار ، فسار نور الدين جريدة في سبعين فارسا في أكابر دولته ، منهم ، أسد الدين شيركوه ، ومجد

الدين أبو بكر بن الداية وغيرهما ، فوصل الى ماكسين في ستة أذفس في يوم شديد المطر وعليهم الابابيد ، فلم يعرفهم الذين بالباب ، وأرسلوا إلى الشحنة وأخبروه بوصول نفر من الأجناد وكأنهم تركمان ، فلم يستتم القاصد كلامه حتى وصل نور الدين ، فحين رآه الشحنة قبل يده وخرج عن الدار ، فنزلها نور الدين حتى لحق به أصحابه ، وسار مجدا إلى سنجار ، فوصلها وليس معه غير نفر يسير ، فنزل بظاهر البلد وألقى نفسه على محفور صغير من شدة تعبه وأرسل إلى المقدم بالقلعة يعرفه وصوله ، وكان المقدم قد استدعي إلى الموصل ، لأن خبره مع نور الدين بلغ من بها ، فأرسلوا إليه وأحضروه فتوقف عدة أيام فلم يصل نور الدين ، فسار الى الموصل وترك ابنه شمس الدين بسنجار ، وقال له : أنا أتأخر في الطريق ، فإن وصل نور الدين فأرسل من يعلمني فلما فارق سنجار وصل نور الدين ، فلما علم شمس الدين بوصوله أرسل قاصدا مجدا إلى أبيه بالخبر ، وأنهى الحال إلى نور الدين فسقط في يده وخاف فوات الأمر ، ووصل القاصد الذي سيره ابن المقدم إلى أبيه ، فأدركه بتليعفر ، فعاد إلى سنجار وسلمها الى نور الدين ، فكاتب نور الدين فخر الدين قرا أرسلان بن داود صاحب الحصن يستنجده ، وبذل له قلعة الهيثم ، فسار إليه بجنده ولما سمع أتابك قطب الدين الخبر ، جمع عساكره وسار عن الموصل نحو سنجار ومعه جمال الدين وزين الدين ، ونزلوا بتل يعفر وأرسلوا إلى نور الدين يذكرون عليه اقدامه وأخذه ماليس له ، ويهددوه بقصده واخراجه عن البلاد قهرا ان لم يرجع اختيارا فأعاد الجواب : إنني أنا الأكبر وإني أحق ان أدبر أمر أخي منكم ، وماجئت الا لما تتابعت الي كتب الأمراء يذكرون كراهيتهم لولايتكما عليهم - يعني زين الدين وجمال الدين - فخفت أن يحملهم الغيظ والأنفة على اخراج الأمر عن أيدينا وأما تهديدكم إياي بالحرب والقتال ، فأنا لا أقاتلكم إلا بجندكم - وكان قد هرب إليه جماعة من أجنادهم - فخافوا أن يلقوه لئلا يخامر عليهم باقي العسكر ، ودخل الأمراء في الصلح وأشار به جمال الدين ، وقال : نحن نظهر للسلطان والخليفة أننا تبع نور الدين ، ونور الدين يظهر

للفرنج أنه يحكمنا ويتهددهم بنا ، فإن كاشفناه وحاربناه فإن ظفر بنا طمع فينا السلطان ، وإن ظفرنا به طمع فيه الفرنج ، ولنا بالشام حمص وقد صار له عندنا سنجار ، فهذه أنفع لنا من تلك ، وتلك انفع له من هذه ، والرأي ان نسلم إليه حمص ونأخذ سنجار ، وهو في ثغر بإزاء الفرنج ويتعين مساعدته ، فاتفق الجماعة على هذا الرأي وسار إليه جمال الدين فأكرمه نور الدين وبالغ في تعظيمه وأكرامه وعاتبه جمال الدين وقال : كنت أرسلت إلي في شيء تريده من البلاد حتى كنت أفعل ماتريد ولا تطمع فيك الأعداء وفينا ، وطال الحديث بينهما ، وأجاب نور الدين إلى ماطلب منه ، واستقر الصلح على ذلك ، وتسلم نور الدين حمص ، وسلم سنجار إلى أخيه وعاد نور الدين إلى الشام ، وأخذ ماكان بسنجار من المال ، ولما أراد العود ، قال لجمال الدين : لابد من أن تكون عندي ، فلي من الحق مثل مالأخي ، وأنا أحوج اليك منه ، فقال له جمال الدين : أنت فيك من الكفاية ماتستغني به عن وزير ومشير ، وليس عندك من الأعداء مثل ماعند أخيك ، لأن عدوك كافر فالناس يدفعونه ديانة ، وأعداء أخيك مسلمون فيحتاج من يقوم بدفعهم ، وإذا كنت عند أخيك فالدفع عائد إليك ، وأريد من بلادك مثل مالي من بلاد أخيك معونة على كثرة خرجي ، فأجابه إلى ذلك ، فقال له جمال الدين : انت عليك خرج كثير لأجل الكفار ويجب مساعدتك ، وأنا أقنع منك بعشرة آلاف دينار كل سنة ، فأمر له بها ، فكان نائب جمال الدين يقبضها ، كل سنة ويشتري بها أسرى من الفرنج ويطلقهم .

ولما تسلم قطب الدين سنجار أقطعها زين الدين ، لأن حمص كانت لأخيه وهو مقيم بها ، واتفقت كلمتهم ، واتحدت آراؤهم فكان كل واحد منهما لايصدر إلا عن أمر أخيه .

# ذكر قضية قلعة سنجار

قال : فلما مات سيف الدين وتولى أخوه قطب الدين ، أحضر شمس الدين محمد بن المقدم عبد الملك من سنجار - وكان هذا شمس الدين خصيصا بسيف الدين - وسبب وصلته به أنه لما قصد سيف الدين خدمة السلطان مسعود السلجوقي ، رتب في خدمته عشرة من الجندارية ، وكان عبد الملك واحدا منهم ، ومعه ولد له مليح الصورة ، فكلف به وأحبه واستصحبه معه إلى الموصل ، ولما انفرق عبد الملك من الجندارية وتبع سيف الدين الى الموصل استخلف سيف الدين ، عبد الملك في سنجار .

فلما توفي سيف الدين وتملك قطب الدين ، أرسل إلى سنجار واستطلب إليه شمس الدين ابن عبد الملك فاستحضره وحلفه على أنه لايمكن والده من تسليم سنجار الى غيره ، فحلف له ثم هرب من عند قطب الدين إلى سنجار ، فعندما استوثق أمر قطب الدين بالموصل واستقرت له المملكة كتب عبد الملك لنور الدين أن يسلمها اليه ، ويعلمه ان خزائن بيت أتابك جميعها في سنجار فلما بلغ قطب الدين ذلك ، سير اليهما ولاطفهما ودخل لهما في كل ما اقترحا عليه ، وحلفا له بمحضر من قاضيها وأعيان شهودها ، واقترح الرسول أن يستصحب معه شمس الدين إلى الموصل فأبى عليه ، وادعى الحياء من قطب الدين لكونه خرج هاربا منه ، فاتفق إلى خروج والده عن سنجار مرحلة ، قدمها نور الدين من حلب في مائتي فارس ، فنفذ شمس الدين الى والده المقدم عبد الملك يعرفه بوصوله ، فخرج ولم يقدر الرسول على منعه .

وكان شمس الدين عند قدوم نور الدين قد فتح الخزائن ، واختار منها من نفائس الجواهر وأخاير الذخائر مايعز وجوده ، وكتب إلى نور الدين في تسليم البلد اليه ، على أن لايطالبه بشيء مما

أخـــذه ، فـــأجابه إلى ذلك ، وتســــلم البلد يوم الاثنين عاشر رجب ، وحصل ابن المقدم على مافي يده من الذخائر .

ولما بلغ قطب الدين مااتفق بعث وزيره جمـال الدين الأصـفهاني ليفرغ ماكان في الخزائن من الأموال والأقمشة والجـواهر ، ومعــه جريدة مايتضمن ذلك المال ( وعند لقائه بذور الدين ( ٧١ ) ) قـال له : هذا مال المسـلمين ولايحـل لك اطـلاق شيء منه ، فقـال نور الدين : إن كان أخذ شيئا من مال المسلمين بالغدر ففي عنقه .

ثم إن جمال الدين قرر الصـلح بين نور الدين وبين أخيه قـطب الدين ، على أن يأخذ نور الدين الخزائن التي في سنجار ، ويأخـذ الرقة والرحبة وحمص ويعطيه سنجار وتبقى الرهـا في يد نور الدين على ماكانت أولا .

ثم رحل نور الدين وترك نائبه فيها حتى يتسلم البلاد ، وعاد إلى حلب ، ومعه خزائن سنجار على سـتمائة جمـل ، مـاخلا البغـال ومافرقه على أولاد الملوك والأمراء ـ وستة وتسـعين بغـلا محملة ذهبا ( ٧٢ ) .

## ذكر قتل البرنس صاحب انطاكية

في سنة أربع وأربعين وخمسمائة ، سـار نور الدين إلى حصـن حارم وهو للفرنج ، فحصره وخرب ربضه ونهب سواده .

ثم رحل عنه إلى حصن إنب فحصره ، فـاجتمعت الفـرنج مـع البرنس صاحب انطاكية وساروا اليه ليرحلوه عن إنب فلم يرحل بل لقيهم ، وتصاف الفريقان واقتتلوا وصبروا ، وظهر مـن نور الدين من الشجاعة والصبر في الحرب على حداثة سنه مـا تعجـب النـاس منه . فانجلت الحرب عن هزيمة الفرنج وقتل المسلمون منهم خلقـا

كثيرا وفيمن قتل ، البرنس صاحب انطاكية ، وكان عاتيا من عتاة الفرنج وذوي التقدم فيهم والملك .

ولما قتل البرنس خلف ابنا صغيرا وهو بيمند ، فبقي مع أمه بأنطاكية ، فتزوجت أمه بابرنس آخر ، وأقام معها بانطاكية يدبر الجيش ويقودهم ويقاتل بهم إلى أن يكبر بيمند ابن المقتول .

ثم إن نور الدين غزا بلد الفرنج غزوة اخرى ، فلقيه فرسان الفرنج وقاتلوا ، فهزمهم وقتل منه وأسر فكان في الأسرى البرنس الثاني زوج أم بيمند ، فلما أسره تملك بيمند انطاكية بلد أبيه وتمكن منه ، وبقي بها إلى أن أسره نور الدين بحارم سنة تسع وخمسين وخمسمائة على مانذكره إن شاء الله تعالى . فأكثر الشعراء مدح نور الدين وتهنئته بهذا الفتح وقتل البرنس فممن قال فيه : القيسراني الشاعر قصيدته المشهورة التي أولها هذه الأبيات :

هذي العزائم لا ما تدعى القضب
وذي المكارم لاما قالت الكتب

وهذه الهمم اللاتي متى خطبت
تعثرت خلفها الأشعار والخطب

صافحت يابن عماد الدين ذروتها
براحة للمساعي دونها تعب

مازال جدك يبني كل شاهقة
حتى ابتنى قبة أوتادها الشهب

أغرت سيوفك بالافرنج راجفة
فؤاد رومية الكبرى لها يجب

ضربت كبشهم منها بقاصمة
أودى بها الصلب وانحطت بها الصلب

طهرت أرض الأعادي من دمائهم
طهارة كل سيف عندها جنب

حتى استطار شرار الزند قادحة
فالحرب تضرم والآجال تختطب

والخيل من تحت قتلاها تقربها
قوائم خانهن الركض والخبب

والنقع فوق صقال البيض منعقد
كما استقل دخان تحته لهب

والسيف هام على هام بمعركة
لا البيض ذو دومة فيها ولا اليلب

والنبل كالوبل هطالا وليس له
سوى القسي وأيد فوقها سحب

وللظبا ظفر حلوا مذاقته
كأنما الضرب فيما بينها ضرب

وللأسنة عما في صدورهم
مصادر أقلوب تلك أم قلب

من كان يغزو بلاد الشرك مكتسبا
من الملوك فنور الدين محتسب

ذو عزمة ما سمت والليل معتكر
الا تمزق عن شمس الضحى الحجب

افعاله كاسمه في كل حادثة
ووجهه نائب عن وصفه اللقب

وهي طويلة جدا . ومما قال فيها بعض الشاميين وانسيت اسمه :

أقوى الضلال واقفرت عرصاته
وعلا الهدى وتبلجت قسماته

وانتاش بين محمد محموده
من بعد ما علت دما عبراته

ردت على الاسلام عصر شبابه
وثباته من دونه وثباته

أرسى قواعده ومد عماده
صعدا وشيد سوره سوراته

وأعاد وجه الحق أبيض ناصعا
إصلاته وصلاته وصلاته ( ٧٣ )

وهي أيضا طويلة .

# ذكر ملك حصن أفامية

وفي سنة أربع وأربعين وخمسمائة سار نور الدين الى حصن أفامية ، وهو للفرنج أيضا ، وبينه وبين مدينة حماة مرحلة ، وهو حصن منيع على تل مرتفع عال ، ومن أحصن القلاع وامنعها ، وكان من به من الفرنج يغيرون على مدينة حماة وشيزر وينهبونها ، وأهل تلك الأعمال معهم تحت الذل والصغار ، فسار نور الدين اليه وحصره وضيق عليه ، ومنع من به القرار ليلا ونهارا ، وتابع عليهم القتال ليمنعهم الاستراحة ، فاجتمعت الفرنج من سائر بلادها ، وساروا نحوه ليزحزحوه عنه فلم يصلوا إليه وقد ملك الحصن ، وملأه ذخائر من طعام ومال وسلاح ورجال ، وجميع ما يحتاج إليه فلما بلغه قرب الفرنج منه سار نحوهم ، فحين رأوا جده في لقائهم ، رجعوا القهقرى واجتمعوا ببلادهم ، وكان قصاراهم أن صالحوه على ما أخذ ومدحه الشعراء فأكثروا ، فمن ذلك قول ابن منير في قصيدته التي أولها :

اسنى الممالك ما أطلت منارها
وجعلت مرهفة الشفار دسارها

وأحق من ملك البلاد وأهلها
رؤوف تكنفه عدله أقطارها

أدركت ثأرك في البغاة وكنت يا
مختار أمة أحمد مختارها

عارية الزمن المغير سما لها
منك المعير فاسترد معارها .

صارت نجومك فوقها ولربما
باتت تنافثها النجوم سرارها

امست مع الشعرى العبور وأصبحت
شعراء تستقلي الفحول شوارها ( ٧٤ )

وهي طويلة

## ذكر الحرب بين نور الدين وجوسلين

وانهـزام نور الدين رضى الله عنه في سـنة ( سـت وأربعين وخمسمائة ) ( ٧٥ )

فيها سار نور الدين إلى بلاد جوسلين ، وهي القلاع التي شمال حلب ، منها تل باشر ، وعين تاب ، وعزاز وغيرها مـن الحصـون فجمع جوسلين الفرنج فارسهم وراجلهم ، ولقوا نور الدين ، فكانت بينهم حرب شديدة اجلت عن انهزام المسلمين وظفر الفرنج ، وأخـذ جوسلين سلاح دار كان لنور الدين أسيرا ، وأخـذ مـا معـه مـن السلاح فأنفذه الى السلطان مسعود بن قليج أرسـلان السـلجوقي صاحب قونية وأقصرا وغيرها من تلك الأعمال ـ وكان نور الدين قد تزوج ابنته ـ وأرسل مع السلاح إليه يقول : قد أنفـذت لك سـلاح صهرك ، وسيأتيك بعد هذا غيره ، فعـظمت هـذه الحـالة على نور الدين ، وأعمل الحيلة على جوسلين حتى أسره على ما نذكره .

## في ذكر أسر جوسلين وملك بلاده

لما بلغ نور الدين ما فعله جوسلين من إرسال سـلاحه إلى حميه السلطان مسعود ، قام لذلك وقعـد ، وهجـر الراحـة للأخـذ

بثأره ، وأزكى العيون على جوسلين ، وأحضر جماعة من التركمان وبذل لهم الرغائب من الاقطاع والأموال ، إن هم ظفروا بجوسلين اما قتلا أو أسرا ، لأنه علم إن هو جمع العساكر الاسلامية لقصده ، جمع جوسلين الفرنج وحذر وامتنع ، فأخلد الى اعمال الحيلة ، فاتفق ان جوسلين خرج متصيدا متنزها في نفر يسير ، فظفر به طائفة من التركمان فصانعهم على مال بذله لهم فرغبوا فيه وأجابوه الى ذلك وأخفوا أمره عن نور الدين وأرسل جوسلين في إحضار المال ، فأتى بعض التركمان ، وكان نور الدين بحلب فأعلمه الحال ، فسير معه عسكرا أخذوا جوسلين من التركمان قهرا ، وكان نور الدين حينئذ بحمص . وكان أسره من أعظم الفتوح على المسلمين ، فإنه كان شيطانا عاتيا من شياطين الفرنج ، شديد العداوة للمسلمين ، وكان هو يتقدم على الفرنج في حروبهم ، لما يعلمون من شجاعته وجودة رأيه وشدة عداوته للملة الاسلامية ، وقسوة قلبه على أهلها ، وأصيبت النصرانية كافة بأسره ، وعظمت المصيبة عليهم بفقده ، وخلت بلادهم من حاميها ، وثغورهم من حافظها ، وسهل أمرهم على المسلمين بعده ، وكان كثير الغدر والمكر لا يقف على يمين ولا يفي بعهد ، طالما صالحه نور الدين وهادنه ، فإذا أمن من جانبه بالعهود والمواثيق نكث وغدر ، فلقيه غدره ومكره (ولا يحيق المكر السيء الا بأهله )( ٧٦ ) .

فما أسر تيسر فتح كثير من بلادهم وقلاعهم فمنها : تل باشر ، وعين تاب ، وأعزاز ، وقورس ، والراوندان ، وحصن البارة ، وتل خالد ، وكفر سوت وحصن بسر فوث بجبل بني عليم ، ودلوك ، ومرعش ، ونهر الجوز ، وبرج الرصاص ، وكان نور الدين رحمه الله تعالى ، إذا فتح حصنا لا يرحل عنه حتى يملأه رجالا وذخائر تكفيه عشر سنين ، خوفا من نصرة تتجدد للفرنج على المسلمين ، فتكون حصونهم مستعدة غير محتاجة إلى شيء .

وقال الشعراء في هذه الحادثة فأكثروا ، فمن ذلك قول القيسراني من قصيدة ، أولها هذه الأبيات حيث يقول :

دعا ما ادعى من غرة النهى والأمر
فما الملك الا ما حباك به القهر

ومن ثنت الدنيا إليه عنانها
تصرف فيما شاء عن أنه الدهر

كما أهدت الأقدار للقمص اسره
وأسعد قرن من حواه لك الأسر

طغى وبغى عدوا على غلوائه
فأوثقه الكفران ، عداوه والكفر

وأمست عزاز كاسمها بك عزة
تشوق على الذسرين لو أنها وكر

فسر واملأ الدنيا ضياء وبهجة
فبالأفق الداجي إلى ذا السنا فقر

كأني بهذا العزم لافل حده
واقصاه بالأقصى وقد قضي الأمر

وقد أصبح البيت المقدس طاهرا
وليس سوى جاري الدماء له طهر (٧٧ )

وقال بعض الشاميين أيضا في هذا المعنى هذه الابيات :

هيهات بعصم من اردت حذار
انى ومن أوهاك الأقدار

- ٦٤٧٩ -

همم تحاك كل يوم رتبة
تسري فيصبح دونها الأقمار

ومطامح في العز إذ هي صوبت
فلهن في الفلك الأثير قرار

طلعت عليك بجوسلين ذريعة
لا سحل انشأها ولا امرار ( ٧٨ )

وسعادة مازلت تمرى خلفها
فيشف وهو الناتق المدرار

فارتك ما يجني الوفي وفاؤه
وأرته كيف يحين الغدار ( ٧٩ )

وهي طويلة

## ذكر المصاف بين نور الدين والافرنج بدلوك

لما سار نور الدين الى قلاع جوسلين ليتملكها ، ملك بعضا وبقي بعض ، فاجتمعت الفرنج وسارت نحو الباقي لتمنعه منه ، وصدو أنه يمتنع باجتماعهم ولايقدم عليهم في عقر ديارهم ، فلما بلغه خبرهم سار اليهم ، وصمم العزم على لقائهم ، فالتقوا بدلوك واقتتلوا ، وكان بين الطائفتين حرب يشيب لها الوليد ، فمنح الله المسلمين أكتاف الفرنج ، فهزموهم هزيمة أتت على كثير منهم وسلم الباقون ، واستولى نور الدين على دلوك وغيرها ، وفي ذكرها وذكر غيرها قال بعض الشعراء الشاميين قصيدة فيها :

- ٦٤٨٠ -

اعدت بعصرك هذا الأنيق
فتوح الذبي وأعصارها

فوطأت ياحبذا أحديها
واسررت من بدر أذوارها

وكان مهاجرها تابعيك
وانصار رأيك أنصارها

فجددت إسلام سلمانها
وعمر جدك عمارها

ومايوم إنب إلا كتيـ
ـك بل طال بالبوع اشبارها

وأيامك الغر من بعده
تعيد إلى الطي أغرارها

ويوم على الجون جون السرا
ة عز فسعطها عارها

صدمت عريمتها صدمة
اذابت مع الماء أحجارها

فصبحت بالخمس أحفاضها
ومسيت بالخمس أبكارها

وفي تل باشر باشرتهم
بزحف تسور أسوارها

وإن دالكتهم دلوك فقد
شددت فصدقت أخبارها ( ٨٠ )

## ذكر وفاة السلطان مسعود بن محمد بن السلطان ملكشاه السلجوقي بهمذان

في سنة أربع ( ٨١ ) وأربعين وخمسمائة ، توفي السلطان مسعود بن محمد بن ملكشاه بهمذان وكان مرضه حمى حادة نحو اسبوع ، وعهد إلى ملكشاه ابن أخيه السلطان محمود وخطب له ببلاد الجبل . وكان الغالب على البلاد والعساكر في أيام السلطان مسعود خاصبك ابن بلذبكري ، فقام بامر ملكشاه ولم يمهله غير قليل حتى قبض عليه ، وكتب إلى أخيه الملك محمد بن السلطان محمود وهو بخوزستان يستدعيه إليه ليخطب له بالسلطنة ، وكان غرض خاصبك أن يقبض عليه أيضا ، ويخلو وجهه من منازع من السلجقية ، وحينئذ يطلب السلطنة لنفسه . فلما كاتب محمدا أجابه إلى الحضور عنده ، وسار اليه وهو بهمذان واجتمع به ، وخدمه خاصبك خدمة عظيمة وحمل إليه التحف الكثيرة ، فلما كان الغد من يوم وصول الملك محمد ، دخل اليه خاصبك فقتله محمد والقى رأسه إلى أصحابه فتفرقوا ، واستقر محمد وثبت قدمه واستولى على بلاد الجبل جميعها ، وكان قتله سنة ثمان واربعين وخمسمائة ، وقتل معه زنكي الجاندار . وبقي خاصبك مطروحا حتى اكلته الكلاب . وكان ابتداء حاله ، انه كان من اولاد بعض التركمان ، فخدم السلطان فمال اليه وقدمه حتى فاق سائر الامراء ، فتقدم تقدما عظيما ، واستولى على أكثر البلاد . وهو كان السبب في اكثر الحوادث الشاغلة للسلطان مسعود ، فان الامراء الاكابر كانوا يأنفون من اتباعه ، لما كان يعاملهم به من الهوان والتكبر عليهم .
وفيها : اعني سنة ثمان وأربعين وخمسمائة ، وصل إلى الموصل اياز قفجاق - وهو من أكابر أمراء العجم - شاكيا من شمس

الدين ايلدكز ، ومستغيثا عليه ومستشفعا اليه لانجاده بعساكر يفتح بها مابيده من البلاد ، فجهزت العساكر معه ، وجعل مقدمها الامير قراجة تجنه ، مقطع بلد الهكارية ، فوصلوا الى سلماس وأقاموا معه وأصلحوا حاله معه ايلدكز ، وهو صاحب تلك البلاد جميعها ، وكان هذا قبل أن يستولي على همذان واصفهان وسائر بلاد الجبل . وفيها توفي حسام الدين تمرتاش صاحب ماردين ، وولي بعده ابنه نجم الدين ألبي .

obeikandl.com

# في ذكر ملك نور الدين دمشق

في سنة تسع وأربعين وخمسمائة ، ملك نور الدين مدينة دمشق وأخذها من صاحبها مجير الدين ابق بن محمد بن بوري بن طغتكين أتابك . وكان الذي حمل نور الدين على الجد في ملكها ، أن الفرنج ملكوا في السنة الخالية مدينة عسقلان وهي مدينة فلسطين حصنا وحصانة ، ولما كانوا يحصرونها ، كان نور الدين يتلهف ولايقدر على ازعاجهم عنها ، لأن دمشق في طريقه ، وليس له طريق على غيرها لاعتراض بلاد الفرنج في الوسط ، فقوي الفرنج بها حتى طمعوا في دمشق ، واستضعفوا مجير الدين وتابعوا الغارة على أعماله ، وأكثروا القتل بها والنهب والسبي ، وزاد الأمر بالمسلمين بها ، إلى أن جعل الفرنج على أهل المدينة قطيعة كل سنة ، فكان رسولهم يجيء الى دمشق ويجبيها من أهل البلد . ثم اشتد البلاء على أهلها ، حتى أرسل الفرنج واستعرضوا عبيدهم وإماءهم ممن أخذ من سائر بلاد النصرانية ، وخيروهم بين المقام عند مواليهم أو العودة إلى أوطانهم ، فمن أحب المقام تركوه ، ومن أحب وطنه صار اليه ، وزالت طاعة مجير الدين عن أهل البلد إلى أن حصروه في القلعة مع انسان منهم يقال له مؤيد الدين بن الصوفي ( ٨٢ ) ، فلما كانت الامور بها هكذا ، خاف اهلها وأشفقوا من العدو ، فجأروا إلى الله تعالى ودعوه في أن يكشف مابهم من الخوف ، فاستجاب لهم وأذن في خلاصهم مما هم فيه على يد أحب عباده اليه ، واحسنهم طريقة ، وأمثلهم سيرة ، وهو الملك العادل حقا نور الدين محمود ، فحسن له السعي في ملك البلد والقاه في روعه . فلما خطر له ذلك أفكر فيه فعلم أنه إن رام ملكه بالقوة والحصار تعذر عليه ، لان صاحبه كان متى رأى شيئا من ذلك ، راسل الفرنج واستمالهم واستعان بهم . وكان ابغض الاشياء إلى الفرنج أن يملك نور الدين دمشق لانه كان يأخذ حصونهم ومعاقلهم وليست له فكيف إذا أخذها وقوي بها . وانضاف إلى ذلك كراهيته لسفك دماء المسلمين ، فإن

الدم كان عنده عظيما لما كان قد جبل عليه من الرأفة والرحمة والعدل ، فلما رأى الحال هكذا عدل الى اعمال الحيلة ، فراسل مجير الدين صاحبها واستماله ، وواصله بالهدايا واظهر له المودة حتى وثق اليه ، ثم صار يكاتبه في بعض الاوقات ويقول له ان فلانا - ويذكر بعض الامراء الذين لمجير الدين - قد كاتبني في المخامرة عليك فاحذره ، فتارة يأخذ اقطاع احدهم ، وتارة يقبض عليه . فلما خلت دمشق من الامراء ، قدم أميرا كان عنده يسمى عطاء بن حفاظ السلمي الخادم ، وكان شهما شجاعا ، وفوض إليه امر دولته ، وكان نور الدين لايتمكن من دمشق معه ، فقبض عليه مجير الدين وقتله ، فقال له عند قتله : ان الحيلة قد تمت عليك فلا تقتلني ، واستبقيني فانه سيظهر لك ماأقول ، فلم يصغ إلى قوله وقتله ، فلما قتل عطاء قوي طمع نور الدين في البلد ، فراسل أحداث البلد وزناطرته واستمالهم ، فأجابوه الى تسليم البلد . فسار إليهم وحصرهم عدة أيام ، فكاتب مجير الدين الفرنج وبذل لهم الاموال وقلعة بعلبك إن رحلوا نور الدين عنه ، وإلى أن جمعوا وجاءوا ، بلغهم أخذ نور الدين البلد فعادوا بخفي حنين .

واما نور الدين فإنه لما حصر البلد وضيق على من به ، ثار الاحداث الذين كاتبهم نور الدين وسلموا إليه البلد من الباب الشرقي ، فدخله بالامان عاشر صفر * وحصر مجير الدين في القلعة ، وراسله وبذل له الاقطاع الكثير ، من جملته مدينة حمص ، فاجاب الى تسليم القلعة فسلمها اليه وسار الى حمص .

ولما استقر نور الدين في البلد ، عمل مع اهله مكرمة عظيمة ، واظهر فيهم عدلا عاما سيرد ذكره سنة تسع وستين ، عند ذكر سيرة نور الدين رحمه الله تعالى . والقى الاسلام بدمشق جرانه ، وثبت اوتاده ، وايقن الكفار بالبوار ، ووهنوا واستكانوا ، فصار جميع مابالشام من البلاد الاسلامية بيد نور الدين .

وإما مجير الدين فإنه أقام بحمص ، وراسل أهل دمشق في إثارة

الفتنة ، فأنهي الامر الى نور الدين ، فخاف إن يحدث مايشق تلافيه بل ربما تعذر ، لاسيما مع مجاورة الفرنج ، فأخذ حمص من مجير الدين وعوضه عنها مدينة بالس فلم يرضها ، وسار عن الشام الى العراق ، فأقام ببغداد وابتنى دارا مجاور المدرسة النظامية وتوفي بها .

## ذكر القبض على سليمان شاه وحمله الى الموصل

في جمادى الأولى من سنة احدى وخمسين وخمسمائة ، قبض زين الدين علي كوجك نائب أتابك قطب الدين مودود ، على الملك سليمان شاه بن السلطان محمد وحمله الى الموصل فسجنه بها . وسبب ذلك ان سليمان شاه استأذن الامام المقتفي لأمر الله في قصد خدمته . وسأل ان يشرف ويخطب له ويمد بالعساكر ليقصد بلاد الملك محمد ابن أخيه السلطان محمود ، فأجيب الى ذلك واذن له ، فسار الى بغداد فوصل اليها في المحرم سنة احدى وخمسين وخمسمائة ، واحضر بدار الخلافة ، وجمع الذقباء والقضاة والشهود ، وحلف سليمان شاه للخليفة على قواعد استقرت بينهما ، وخطب له ببغداد في المحرم ، ولقبه شاهنشاه المعظم غياث الدنيا والدين ، وخلع عليه الخليفة وعلى الامير قويدان وجعل الامير قويدان ، صاحب الحلة أمير حاجب معه وسار نحو بلاد الجبل عازما على قصد بلاد الملك محمد ، وخرج الخليفة الى حلوان ، وارسل إلى ملكشاه بن السلطان محمود أخي سليمان شاه واستدعاه ، فحضر ومعه الفا فرس فقرر الخليفة القواعد بينه وبين سليمان شاه ، وحلف كل واحد منهما للآخر ، وسيرهما في العساكر وقواهما بالاموال والعدد .

وبلغ الخبر الى الملك محمد ، فجمع عساكره ولقي سليمان شاه وملكشاه بقرب همذان وتصافوا ، فانهزم سليمان شاه وملكشاه ، وظفر الملك محمد بعسكرهما ومامعهما وعادوا منهزمين الى بغداد .

وأما سليمان شاه فإنه سار على شهر زور قاصدا نحو بغداد ، وكان الملك محمد قد أرسل إلى أتابك قطب الدين وزين الدين واستمالهما فأجاباه إلى موافقته ، وسار زين الدين نجدة له في عسكر كثير ، فبلغه خبر الهزيمة وان سليمان شاه قد سار على شهرزور ، وهي لزين الدين ونائبه بها الامير بوزان ، فوقف زين الدين على طريقه ، فلما وصل اليه اخذه وقبض عليه ، وحمله ، إلى الموصل فحبسه بها مكرما معظما ، وكانت الخطبة له ببغداد .

## في ذكر حصر نور الدين قلعة حارم

في هذه السنة ، سار الملك العادل نور الدين محمود الى قلعة حارم ، وهي للفرنج ثم لبيمند صاحب انطاكية فحصرها ـ وهذا الحصن غربي حلب بالقرب من انطاكية ـ وضيق على أهلها ، وهي من أمنع الحصون واحصنها في نحور المسلمين ، فاجتمعت الفرنج من قرب منها وبعد ، وساروا نحوه لمنعه . وكان بالحصن شيطان من شياطين الفرنج يعرفون عقله وحسنه ، وحسن رأيه ، ويرجعون الى قوله ، فأرسل اليهم يعرفهم قوتهم ، وانهم قادرون على حفظ الحصن والذب عنه بما عندهم من العدد والعدد وحصانة القلعة ، ويشير عليهم بالمطاولة وترك اللقاء . وقال لهم : ان لقيتموه هزمكم وأخذ حارم وغيرها ، وإن حفظتم أنفسكم منه أطقنا الامتناع عليه . ففعلوا ماامرهم به وأشار عليهم ، وراسلوا نور الدين في الصلح على ان يعطوه حصة من أعمال حارم ، فابى أن يجيبهم الا على مناصفة الولاية ، فأجابوه الى ذلك ، فصالحهم وعاد ، وفي ذلك يقول بعض الشعراء ، من ابيات له فيها يقول « شعر » :

البست دين محمد ياذوره
عزا له فوق السها أساد

مازلت تمسكه بمياد القنا
حتى تذقف عوده المياد

لم يبق مذ أرهفت عزمك دونه
عدد يراع به ولا استعداد

إن المنابر لو تطيق تكلما
حمدتك عن خطبائها الاعواد

ولئن حمت منك الاعادي مهلة
فلهم الى المرعى الوبي معاد

ملق باطراف الفرنجة كلكلا
طرفاه ضرب صادق وجلاد

حاموا فلما عايذوا خوض الردى
حاموا فرائس كيدهم اوكادوا

ورأى البرنس وقد تبرنس ذلة
حرما بحارم والمصاد مصاد

عجبا لقوم حاولوك وحاولوا
عودا فواتاهم اليه مراد

من مذكر أن يذسف السيل الربى
وأبوه ذاك العارض المداد

أو أن يعيد الشمس كاسفة السنا
نار لها ذاك الشهاب زناد



obeikandl.com

لايذفع الاباء ماسمكوا من الـ
ـعلياء حتى ترفع الاولاد ( ٨٣ )

وهي طويلة .

## في ذكر الزلزلة التي جرت في الشام ونواحيها

في سنة اثنتين وخمسين وخمسمائة ، كان بالشام زلزلة شديدة ذات رجفات عظيمة متتابعة ، أخربت البلاد وأهلكت العباد . وكان أشدها بحماة وحصن شيزر ، فإنهما خـربتا بمـرة ، وكذلك مـاجاورهما كحصن بارين ، والمعرة وغيرها من البـلاد والقـرايا . وهلك تحـت الهدم من الخلق مالا يحصـيه الا الله تعـالى ، وتهـدمت الاسـوار والدور والقلاع . ولولا ان الله من على المسلمين بنور الدين ، جمـع العساكر وحفظ البلاد ، وإلا كان دخلها الفرنج بغير قتال ولاحصار

ولقد بلغني من كثـرة الهلكى ، أن بعض المعلمين بحمـاة ، ذكر أنه فارق المكتب لهم عرض له ، فجاءت الزلزلة فأخربت الدور ، وسقط المكتب على الصبيان جميعهم . قال المعلم : فلم يأت أحد يسـأل عن صبي كان له في المكتب ، وأشباه هذه الحكاية من الأخبار الدالة على أن كثرة الهلكى كثيرة جدا .

## ذكر ملك نور الدين المرحوم حصن شيزر

نبتدىء بذكر حصن شيزر ولمن كان قبل هـذا الوقـت الذي ملكه نور الدين فيه ، فنقول : هذا الحصن قريب من حماه ، بينهما نحو نصف نهار ، وهو من أمنع القلاع وأحصـنها ، على حجـر عال له طـريق مذقور في طرف الجبل ، وقد قطع الطريق في وسطه وجعل عليه جسر من خشب ، فإذا قطع ذلك الجسر تعذر الصعود اليه ، وكان لآل منقذ

الكنانيين ، يتوارثونه من أيام صالح بن مرداس ( ٨٤ ) إلى أن إنتهى الأمر إلى الأمير أبي المرهف نصر بن علي بن المقلد بن نصر ابن منقذ بن نصر بن هاشم بعد أبيه أبي الحسن علي ، فبقى به مدة طويلة إلى أن مات بشيزر سنة إحدى وتسعين وأربعمائة . وكان شجاعا كريما صواما قواما ، فلما حضره الموت استخلف أخاه الأمير أبا سلامة مرشد بن علي ، فقال : والله لا وليتها ولأخرجن من الدنيا كما دخلتها ، وكان عالما بالقرآن والادب ، كثير الصلاح ، فولاها أخاه الآخر أبا العساكر سلطان بن علي ، وكان أصغر منه ، فاصطحبا أجمل صحبة مدة من الزمان ، فأولد أبو سلامة مرشد عدة اولاد ذكور ، فكبروا وسادوا ، منهم: عز الدولة ابو الحسن علي ، ومؤيد الدولة اسامة ابن مرشد وغيرهما ، ولم لاخيه سلطان ولد ذكر الى آن كبر ، فجاءه أولاد ، فحسد أخاه على ذلك ، وكان كلما رأى صغر أولاده وكبر أولاد أخيه وسيادتهم ، ساءه ذلك وخافهم على أولاده ، وسعى المفسدون بينهما فغيروا كلا منهما على أخيه ، فكتب الأمير سلطان إلى أخيه شعرا يعاتبه على اشياء بلغته عنه فاجابه بابيات جيدة في معناها ، رأيت اثبات بعضها ، وهي هذه الابيات ، شعر :

ظلوم ابت في الظلم الا تماديا
وفي الصد والهجران الا تناهيا

شكت هجرنا في ذلك والذنب ذنبها
فيا عجبا من ظالم جاء شاكيا

وطاوعت الواشين في وطالما
عصيت عذولا في هواها وواشيا

ومال بها تيه الجمال الى القلى
وهيهات أن أمسي لها الدهر قاليا

ولاناسيا ماأودعت من عهودها
وإن هي أبدت جفوة وتناسيا

ولما أتاني من قريضك جوهر
جمعت المعالي فيه لي والمعانيا

وكنت هجرت الشعر حينا لأنه
تولى برغمي حين ولى شبابيا

وأين من الستين لفظ مفوف
إذا رمت أدنى القول منه عصانيا

وقلت أخي يرعى بني وأسرتي
ويحفظ عهدي فيهم وذماميا

ويجزيهم مالم أكلفه فعله
لذفسي فقد أعددته من تراثيا

فمالك لما أن حنى الدهر صعدتي
وثلم مني صارما كان ماضيا

تذكرت حتى صار برك قسوة
وقربك منهم جفوة وتنائيا

فاصبحت صفر الكف مما رجوته
أرى الياس قد عفى سبيل رجائيا

على أنني ماحلت عما عهدته
ولاغيرت هذي السنون ورائيا

فلا غرو عند الحادثات فانني
أراك يميني والأنام شماليا

تهن بها عذراء لو قرنت بها
نجوم سماء لم تعد دراريا

تحلت بدر من صفاتك زانها
كما زان منظوم اللآلي الغوانيا

وعش بانيا للجود ماكان واهيا
مشيدا من الاحسان ماكان هاويا

وكان الامر فيه في حياة الامير مرشد بعض الستر ، فلما مات سنة احدى وثلاثين وخمسمائة قلب أخوه لأولاده ظهر المجن ، وباداهم بما يسوءهم ، وتمادت الايام بينهم إلى أن قوي عليهم فأخرجهم من شيزر . وكان أعظم الاسباب في إخراجهم ، ماحدثت به عن مؤيد الدولة اسامة بن مرشد ، قال : كنت من الشجاعة والاقدام على ماقدعلمه الناس ، فبينما أنا بشيزر ، وإذ قد أتاني انسان ، فأخبرني أن برمله ، يقاربها ، أسدا ضاريا . قال : فركبت فرسي وأخذت سيفي وسرت إليه لاقتله ، ولم أعلم أحدا من الناس لئلا أمنع من ذلك ، فلما قربت من الأسد ، نزلت عن فرسي وربطته ومشيت نحوه ، فلما رآني قصدني ووثب على ، فضربته بالسيف على رأسه فانفلق ، ثم أجهزت عليه وأخذت رأسه في مخلاة فرسي وعدت الى شيزر ، ودخلت على والدتي والقيت الرأس بين يديها وحدثتها الحال ، فقالت : يابني تجهز للخروج من شيزر ، فوالله لايمكنك عمك من المقام ولاأحدا من أخوتك ، وأنتم على هذه الأحوال من الاقدام والجراءة . فلما كان الغد وإذا قد أمر عمي بإخراجنا من عنده ، والزمنا به الزاما لامهلة فيه فتفرقنا في البلاد . فقصدوا الملك

العادل نور الدين ، وشكوا إليه مالقوا من عمهم ، فلم يمكنه قصده والاخذ بثأرهم واعادتهم الى وطنهم لاشتغاله بجهاد الكفار ، ولخوفه من أن يسلم شيزر الى الفرنج ، وبقي في نفسه منه أثر . وتوفي الامير السلطان وولي بعده أولاده ، فبلغ نور الدين عنهم مراسلة الفرنج ، فاشتد مافي نفسه وهو ينتظر الفرصة ، فلما خربت القلعة بالزلزلة لم يسلم منها أحد كان في الحصن ، فبادر إليها وملكها واضافها الى بلاده ، وعمرها وعمر أسوارها وإعادها كأن لم تخرب . وكذلك ايضا فعل بمدينة حماة وكل ماخرب بالشام بهذه الزلزلة ، فعادت البلاد كأحسن ماكانت .

## ذكر وفاة عز الدين الدبيسي وحصر الجزيرة

في ذي الحجة من سنة اثنتين وخمسين وخمسمائة ، توفي الامير عز الدين أبو بكر الدبيسي صاحب جزيرة ابن عمر ، فسار قطب الدين أتابك مودود ابن الشهيد إليها ، ظنا منه أنها لا تمتنع عليه ، لأنها كانت بيد الدبيسي إقطاعا منه، فلما وصل إليها رأى أنه قد تغلب عليها ملوك الدبيسي اسمه أغلبك ، وقد أطاعه الجند وامتنعوا بالمدينة ، وكان الدبيسي لم يخلف ولدا، فلهذا تغلب بعده . وأقام أتابك قطب الدين محاصرا المدينة عدة شهور لأنه لم ير أن يضع من قدرها بالاسراع في ملكها ، ثم تسلمها وترك بيد اغلبك القلاع المختصة بها وهي : كواشي ( ٨٥ ) ، والزعفران ، وفرح ، وجميع قلاع الزوزان وغيرهما . وعاد اتابك الى الموصل بعد الاستيلاء على الجزيرة ، وكان الدبيسي من أكابر الأمراء ، يأخذ نفسه مأخذ الملوك. حكى لي والدي ، أنه لم يضع علامته على اطلاق مال أبدا قل أم كثر . وكان عاقلا حازما ، ذا رأي وكيد ومكر .

# ذكر حصار الملك محمد وزين الدين دار السلام بغداد

في سنة ثلاث وخمسين وخمسمائة ، سار الملك محمد بن السلطان محمود الى بغداد ليحصرها ، وأرسل إلى أتابك قطب الدين يستمده ، ويطلب منه ان ينجده بارسال العساكر . فجهز إليه عسكرا كثيفا ، وجعل مقدمه زين الدين نائبه في جميع بلاده وسيرهم اليه . واجتمعوا بالملك محمد بنواحي حربي ، وساروا في الجانب الغربي الى بغداد فوصلوها في ذي القعدة . وبلغ الخبر إلى المقتفي لامر الله ، فأمر بإخراب قصر عيسى ، والمربعة ، والقرية ، والمستجدة ، والنجمي ، ونهب أصحابه ماوجدوا في الدور من الأموال والأثاث وغير ذلك ، وخرب عسكر الملك محمد نهر القلائين ، والتوثة ، وباب الميدان ، وقطفتا ( ٨٧ ) ، ولم يتعرض أحد للكرخ وباب البصرة ، وخرج أهلهما الى العسكر فاتجروا وكسبوا معهم الأموال الكثيرة . وجد المقتفي لامر الله في حفظ بغداد وجمع الغلات ، وقام وزيره عون الدين بن هبيرة في هذا الأمر المقام الذي يعجز عنه غيره .

ولما وصل العسكر إلى بغداد نصبوا جسرا على دجلة ، وعبر أكثر العسكر إلى الجانب الشرقي وأقام زين الدين وعسكر أتابك قطب الدين بالجانب الغربي ، نازلين تحت الصراة ، وكان القتال في الماء على باب البلد ، ولم يقتل بين الفريقين الا نفر يسير ، وإنما الجراح كان كثيرا ، وأمر المقتفي لامر الله فنودي ببغداد : من جرح فله خمسة دنانير ، فكان كل من جرح يوصل ذلك إليه . فحضر بعض العامة عند الوزير مجروحا ، فقال له الوزير : هذا جرح صغير لاتستحق عليه شيئا ، فعاد الى القتال فضرب في جوفه فخرجت امعاؤه ، فعاد الى الوزير وقال له : يامولانا الوزير : يرضيك هذا . فضحك منه ، وأمر له بصلة وأحضر من عالجه .

ولم يزل الخليفة يراسل زين الدين ويستميله ، إلى أن تغيرت نيته في القتال ، وثبط الملك محمد عنه أيضا ، وكانت كتب الخليفة ورسله ، صادرة إلى جميع أصحاب الاطراف المجاورين للملك محمد ، يحثهم على قصد بلاده ، وأقطع كل صاحب طرف مايليه منها ، فتحرك أصحاب الاطراف .

وكان قد طال المقام على بغداد ولم ينل الملك محمد منها غرضا ولاغلا بها سعر ، لان الوزير كان يعطي الاجناد الغلات عوض الأموال ، فيبيعونها ليتفقوا ثمنها ، فكانت الاسعار لاتزال رخيصة بهذا السبب .

ثم إن الخبر وصل إلى الملك محمد ، بأن أخاه ملكشاه قد قصد همذان ودخلها في عسكر كثير ونهبها ، وأخذ نساء الامراء الذين معه وأولادهم فاختلط العسكر وتفرقوا وعاد الملك محمد نحو همذان ، وعسكر الموصل مع زين الدين نحو الموصل ، وعاد كل امير الى بلاده على عزم العود الى بغداد ، وخرج أهل بغداد فنهبوا أواخر العسكر والمنقطعين ، وشعثوا دار السلطان .

## ذكر وفاة المقتفي لأمر الله وخلافة ابنه المستنجد بالله

في ثاني ربيع الأول سنة خمس وخمسين وخمسمائة ، توفي أمير المؤمنين المقتفي لأمر الله أبو عبد الله محمد بن المستظهر بالله بعلة التراقي . وكان مولده ثاني عشر ربيع الاخر سنة تسع وثمانين وأربعمائة ، وأمه أم ولد تدعى ياغي ، وكانت خلافته أربعا وعشرين سنة وشهرين .

ولما توفي جددت البيعة لولده ابي المظفر يوسف ولقب المستنجد بالله وكان قد عهد اليه قبل وفاته ، وبايعه الامراء ، والقضاة ،

والفقهاء ، وأعيان الناس . وكتب الى الآفاق باخذ البيعة له فلم يمتنع أحد من ذلك ، وأقر عون الدين بن هبيرة على وزارته .

## في ذكره مسير سليمان شاه الى همذان

في اوائل سنة خمس وخمسين وخمسمائة ، وردت رسل الأمراء الأكابر من بلاد الجبل الى أتابك قطب الدين ، يطلبون منه إنفاذ الملك سليمان شاه بن محمد إليهم ليولوه السلطنة ، وترددت الرسل في ذلك حتى استقر الأمر بينهم أن يكون سليمان شاه سلطانا ، وقطب الدين أتابكه والمرجع إليه في جميع مملكته ، وجمال الدين وزيره ، وزين الدين مقدم عسكره . وتحالفوا على هذا وجهز سليمان شاه ، وحمل إليه أتابك قطب الدين من الأموال والثياب والخيل والآلات مايصلح للسلاطين ، وسار ومعه زين الدين في عسكر الموصل نحو همذان ، فلما قاربوا بلاد الجبل ، أقبلت العساكر إلى خدمة سليمان شاه أرسالا ، كل يوم يلقاه طائفة وأمير ، فاجتمع معه عسكر عظيم ، فخافهم زين الدين على نفسه وعلى الموصل ايضا ، لأنه رأى من تسلطهم على السلطان واطراحهم للادب ماأوجب الخوف ، فعاد عنه الى الموصل . فحين فارقه زين الدين لم ينتظم أمره ولم يتم له ماأراد .

حكى لي والدي قال : استدعاني جمال الدين الوزير بعد مسير سليمان شاه ، وقال : قد استقر الأمر كيت وكيت ، فتعود الى الجزيرة وتقطع علائقك وتقضي اشغالك ، فإنني أريد أن أجعلك نائبي بالعراق ، قال : فسرني ذلك من وجه وساءني من اخر ، الا انني لم ار من طاعته بدا ، قال : ثم استدعاني بعد ذلك ، وقال لي : عد الى بلدك ، فان سليمان شاه لم ينتظم حاله ففارقته وعدت .

وفيها اعنى سنة خمس وخمسين ، حج زين الدين نائب قطب الدين ، وحذره اصحابه من الحج لاجل مساعدة الملك محمد في حصر

بغداد ، فلم يلتفت الى قولهم وسار ، فلما وصل بغداد اكرمه الخليفة المستنجد بالله ، واجتمع به وأمر بالخلع عليه ، فلما لبس الخلعة كانت طويلة ـ وكان هو قصير جدا ـ فمد يده الى كمرانة وأخرج ماشد به وسطه وقصر الجبة ، فنظر المستنجد إليه فاستحسن ذلك منه ، وقال لمن عنده : مثل هذا يكون الامير والجندي لامثلكم ، فلما دخل عليه قبل يده ، ثم خرج من عنده بعد ان حادثه بالتركية ـ وكان المستنجد بالله يتكلم بها جيدا ـ فلما خرج نظر اليه المستنجد من شباك ، وكان زين الدين قد أخرج شيئا من السيف الذي أنعم به عليه من الديوان ، فلم يره جيدا وهو يومىء برأسه ـ يعني انه غير جيد ـ فأرسل إليه سيفا آخر ، وقال الرسول : يقول لك أمير المؤمنين ، ذاك السيف يترك ، وهذا يقاتل به أعداء أمير المؤمنين وأعداء المسلمين . فرد وجهه وقبل الأرض وتقلده . وأحسن إلى الناس في الطريق ، وأكثر الصدقات .

## في حصر نور الدين قلعة حارم

في سنة سبع وخمسين وخمسمائة ، جمع نور الدين العساكر بحلب ، وسار إلى قلعة حارم وحصرها وجد في قتالها ، فامتنعت عليه لحصانتها وكثرة من بها من فرسان الفرنج وشجعانهم . فلما علم الفرنج خبرها ، جمعوا فارسهم وراجلهم من سائر البلاد وحشدوا ، وأعدوا وأستعدوا ، وساروا وتلطفوا الحال معه . فلما رأى أنه لايمكنه أخذ الحصن ولايجيبونه إلى المصاف عاد إلى بلاده .

وممن كان معه في هذه الغزوة ، الأمير مؤيد الدولة أسامة بن مرشد بن منقذ ـ وكان من الشجاعة في الغاية التي لامزيد عليها ـ فلما عاد الى حلب ، دخل مسجد سيرين ـ وكان قد دخله

في العام الماضي سائرا الى الحج - فلما دخله الآن ، كتب على حائطه ، يقول : شعر

لك الحمد يامولاي كم لك منة
علي وفضل لايحيط به شكري

نزلت بهذا المسجد العام قافلا
من الغزو موفور النصيب من الأجر

ومنه رحلت العيس في عامي الذي
مضى نحو بيت الله والركن والحجر

فأديت مفروضي واسقطت ثقل ما
تحملت من وزر الشبيبة عن ظهري

## في ذكر انهزام نور الدين بحصن الاكراد وماجرى له

في سنة ثمان وخمسين وخمسمائة ، جمع الملك العادل نور الدين محمود بن الشهيد زنكي عساكره جميعها ودخل بلاد الفرنج ، فنزل بالبقيعة تحت حصن الاكراد - وهو للفرنج عازما على دخول بلادهم ومنازلة طرابلس فبينما الناس في بعض الايام في خيامهم وسط النهار ، لم يرعهم إلا ظهور صلبان الفرنج من وراء الجبل الذي عليه الحصن . وكان سبب ذلك ، أنهم اجتمعوا واتفق رأيهم علي كبسة المسلمين في النهار لأنهم يكونوا أمنين ، فركبوا نحوهم ، فلم يشعر يزك ( ٨٨ ) المسلمين الا وقد قاربوهم ، فأرادوا منعهم فلم يطيقوا ذلك ، وارسلوا إلى نور الدين يعلمونه الخبر ، فرهقهم الفرنج وأخذوهم بين ايديهم ، فوصلوا معا إلى العسكر الذوري ، فلم يتمكن المسلمون من ركوب الخيل وأخذ السلاح الا وقد خالطوهم ، فكان أقصى رأيهم الانهزام ، ووضع الافرنج فيهم السيف وأكثروا

القتل والأسر ، وكان أشد شيء على المسلمين الدوقس الرومي ، فإنه كان قد خرج إلى الساحل في جمع كثير من الروم فقاتلوا محتسبين في زعمهم ، فلم يبقوا على أحد ، وقصدوا خيام الملك العادل نور الدين فخرج من ظهر خيمته عجلا بغير قباء فركب فرسا هناك للنوبة ، واسرعته ركبه وفي رجله شبحة ، فنزل انسان من الاكراد فقطعها ، فنجا نور الدين وقتل الكردي ، وكان أكثر القتل في السوقة والغلمان ، ولما نجا نور الدين سأل عن مخلفي ذلك الكردي فأحسن اليهم جزاء لفعله .

وسار نور الدين الى مدينة حمص وأقام بظاهرها ، وأحضر منها مافيها من الخيام ونصبها على بحيرة قدس ( ٨٩ ) على فرسخ من حمص ، وبينها وبين مكان الواقعة أربع فراسخ ، فكان الناس لايظنون إنه يقف دون حلب ، فكان رحمه الله اشجع من ذلك وأقوى عزما .

ولما نزل على بحيرة قدس ، اجتمع اليه كل من نجا من المعركة ، فقال له بعض أصحابه : ليس من الرأي أن تقيم ههنا ، فإن الفرنج ربما حملهم الطمع على المجيء إلينا ونحن على هذه الحال ، فوبخه واسكته وقال : اذا كان معي الف فارس لاابالي بهم قلوا أم كثروا والله لااستظل بجدار حتى آخذ بثأر الاسلام وثأري .

ثم إنه أرسل إلى حلب ودمشق ، وأحضر الأموال والدواب والاسلحة والخيام وسائر مايحتاج اليه الجند فاكثر ، وفرق ذلك جميعه على من سلم ، وأما من قتل أو أسر فإنه أقر اقطاعه على اولاده ، فإن لم يكن ولد فعلى بعض أهله ، فعاد العسكر كأنه لم يفقد منه احد .
وأما الفرنج فإنهم كانوا عازمين على قصد حمص بعد الهزيمة ، لأنها أقرب البلاد اليهم ، فلما بلغهم مقام نور الدين عندها ، قالوا : إنه لم يفعل هذا إلا وعنده من القوة أن يمنعنا .

وكان نور الدين قد أكثر الخرج ، إلى أن قسم في يوم واحد مائتي

ألف دينار حمر ، سوى غيرهما من الدواب والخيام والسلاح وغير ذلك . وتقدم الى ديوانه ان يحضروا الجند ويسألوا كل واحد منهم عن الذي أخذ منه ومهما ذكر شيئا أعطوه عوضه ، فحضر بعض الجند وادعى شيئا كثيرا علم الدواب كذبه فيما ادعاه لمعرفتهم بحاله ، فارسلوا الى نور الدين ينهون اليه القصة ، ويستأذنوه في تحليفه على ماادعاه ، فأعاد الجواب : لاتكدروا عطاءنا بالاذى ، فاني أرجو الثواب والاجر على قليله وكثيره . وقال له أصحابه : ان لك في البلاد ادرارات كثيرة وصلات عظيمة للفقهاء والفقراء والصوفية والقراء ، فلو استعنت بها الآن لكان أمثل ، فغضب من هذا وقال : والله لاأرجو النصر الا باولئك ، فانما ترزقون وتنصرون بضعفائكم ، كيف اقطع صلات قوم يقاتلون عني وانا في فراشي بسهام لاتخطىء ، واصرفها الى من لايقاتل عني الا اذا رآني بسهام قد تخطىء وتصيب ، ثم هؤلاء القوم لهم نصيب في بيت المال اصرفه اليهم ، كيف اعطيه غيرهم ، فسكتوا .

تلك المكارم لاقعبان من لبن
شيبا بماء فعادا بعد ابوالا

هكذا هكذا والا فلا لا.

ثم ان الفرنج ارسلوا الى نور الدين في المهادنة فلم يجبهم اليها ، فتركوا عند الحصن من يحميه ، وعادوا إلى بلادهم وتفرقوا .

## في ذكر القبض على جمال الدين الوزير ابن علي الاصفهاني

في هذه السنة أيضا ، قبض أتابك قطب الدين على وزيره جمال الدين محمد بن علي الاصفهاني . وكان قد خدم الشهيد فولاه نصيبين فظهرت كفايته ، فأضاف إليه الرحبة فأبان عن كفاية

وعفة ، وكان من خواصه وأكبر ندمائه ، فجعله مشرف مملكته كلها ، وحكمه تحكيما لامزيد عليه . فحكى لي والدي ، قال : أرسلني دزدار الجزيرة الى الوزير ضياء الدين الكفرتوثي - وهو وزير الشهيد والحاكم في بلاده قبل أن اتصل أنا بخدمة جمال الدين وأنوب عنه - يقول له : قد بلغني أن جمال الدين يقصدني ويريد أن يعزلني ، وأنا متعلق بك وبنصير الدين ، ومن أصحابكما ، فكيف ترى الحال . قال : فلما أبلغت الوزير هذه الرسالة ، قال لي : ما سمعت من جمال الدين شيئا من هذا عند أتابك ، ومع هذا ، فالرجل يدخل قبلي ويخرج بعدي ، فلم أعلم مايكون منه . ولم يزل كذلك الى ان قتل الشهيد ، وكان منه ماقد تقدم ذكره في حفظ الدولة ، ووزر لولده سيف الدين ، ثم لقطب الدين . وكان بينه وبين زين الدين عهود ومواثيق على المصافاة والاتفاق ، وكان أصحاب زين الدين يكرهونه ويقعون فيه عند زين الدين فنهاهم ، وكانت الموصل في أيامه ملجأ لكل ملهوف ، ومأمنا لكل خائف ، فسعى به الحساد إلى أتابك حتى أوغروا صدره عليه ، وقالوا : إنه يأخذ أموالك فيتصرف بها ، فلم يمكنه ان يغير عليه شيئا بسبب اتفاقه مع زين الدين ، فوضع على زين الدين من غيره عن مصافاته ومؤاخاته ، فقبض عليه وحبس بقلعة الموصل ، ثم ندم زين الدين على الموافقة على قبضه ، لأن خواص أتابك وأصحابه كانوا يخافون جمال الدين ، فلما قبض انبسطوا في الامر والنهي على خلاف غرض زين الدين ، فكان زين يذم أصحابه على تحسين الموافقة على قبض جمال الدين .

## ذكر مسير شيركوه وعساكر نور الدين إلى ديار مصر

في سنة تسع وخمسين وخمسمائة سار أسد الدين شيركوه بن شاذي - وهو من أكابر الأمراء النين في خدمة الملك العادل نور الدين محمود - الى الديار المصرية عازما على ملكها واستضافتها الى المملكة النورية .

ونحن نبتدئ قبل مسيره وماكان منه ، بذكر حاله وتنقله واتصاله بالخدمة النورية ، فنقول : كان أسد الدين شيركوه وأخوه نجم الدين أيوب – وهو أكبر ابناء شاذي – من بلد دوين ، وهي بلدة من آخر بلاد أذربيجان مما يلي الروم ( ٩٠ ) واصلهما من الاكراد الروادية ، وهذا القبيل هو أشرف الأكراد ، فقدما العراق وخدما مجاهد الدين بهروز شحنة العراق ، فرأى من نجم الدين عقلا ورأيا وحسن سيرة فجعله دزدار تكريت ، وهي له ، فسار إليها ومعه أخوه أسد الدين ، فلما انهزم أتابك الشهيد رضي الله عنه بالعراق من قراجة الساقي على ماذكرناه قبل ، وصل إلى تكريت ، فخدمه نجم الدين وأقام له السفن ، فعبر دجلة هناك وتبعه اصحابه ، فأحسن نجم الدين صحبتهم وسيرهم ثم ان أسد الدين قتل انسانا بتكريت لملاحاة جرت بينهما ، فأرسل مجاهد الدين إليه وإلى أخيه نجم الدين فأخرجهما من تكريت ، فقصدا أتابك الشهيد ، فأحسن اليهما وعرف لهما خدمتهما ، واقطعهما اقطاعا حسنا ، وصارا من جملة جنده . فلما فتح حصن بعلبك جعل نجم الدين دز دارا فيه ، فلما قتل الشهيد حصره عسكر دمشق ، فأرسل الى الملك سيف الدين غازي – وقد قام بالملك بعد والده – ينهي الحال اليه ويطلب العسكر ليرحل صاحب دمشق عنه ، وكان سيف الدين في ذلك الوقت في بداية ملكه ، وهو مشغول باصلاح السلطان واصحاب الاطراف الذين يجاورونه ، فلم يتفرع لبعلبك ، وضاق الامر على من بها من الحصر ، فلما رأى نجم الدين الحال ، وخاف ان تؤخذ قهرا وعنوة ويناله أذى ، أرسل في تسليم القلعة وطلب اقطاعا ذكره فأجيب الى ذلك ، وحلف له صاحب دمشق عليه وتسلم القلعة ، ووف له بما حلف عليه من الاقطاع والتقدم وصار عنده من أكابر الامراء ، واتصل أخوه أسد الدين شيركوه بالخدمة النورية بعد قتل الشهيد – وكان يخدمه في أيام والده – فقربه نور الدين واقطعه ، ورأى منه في حروبه ومشاهده اثارا يعجز عنها غيره لشجاعته وجرأته ، فزاده اقطاعا وقربا ، حتى صار له حمص والرحبة وغيرهما ، وجعله مقدم عسكره .

فلما تعلقت الهمة النورية بملك دمشق ، أمر أسد الدين فراسل أخاه نجم الدين ايوب ـ وهو بهـا ـ في ذلك ، وطلب منه المساعدة على فتحها ، فأجاب الى مايراد منه ، وطلب هـو وأسـد الدين مـن نور الدين كثيرا من الاقطاع والأملاك ببلد دمشق وغيرهما ، فبذل لهما ماطلب منه ، وحلف لهما عليه ، ووفى لهما لما ملكها ، وصارا عنده في أعلى المنازل ، لاسيما نجـم الدين ، فإن سائر الأمـراء كانوا لايقعدون عند نور الدين الا أن يأمرهم أو أحدهم بـذلك ، الا نجـم الدين ، فإنه كان إذا دخل إليه قعد من غير ان يؤمر بذلك .

فلما كان هـذه السـنة وعزم نور الدين على ارسـال العساكر الى مصر ، لم ير لهذا الأمر الكبير أقـوم ولا أشـجع مـن اسـد الدين فسيره . وكان سبب ذلك أن شاور السعدي ـ وزير العـاضد لدين الله العلوي صـاحب مصر ـ عزل مـن الوزارة ، فسـار الى الملك العادل نور الدين ، فـوصل إليه وهـو بـدمشق ، والتجـأ إليه واستجاربه ، فأحسن لقاءه وأكرم مثواه ، وانعم عليه انعاما غمـره به . وكان وصوله سـنة ثمـان وخمسـين وخمسـمائة ، وطلب منه ارسال العساكر الى مصر ليعود اليها ويكون له فيها حصة ذكرهـا له ، ويتصرف على أمره ونهيه واختياره ، ونور الدين يقـدم في ذلك رجلا ويؤخر اخرى ، تارة تحمله رعاية قصد شاور .

( بابه ) وطلب الزيادة في الملك والتقوي على الفرنج ، وتارة يمنعـه خطر الطريق وكون الافرنج فيه ، إلا أن يوغلوا في البـر فيتعـرضوا لخطر آخر مع الخوف من الفرنج،ثم استخار الله تعالى وأمر أسـد الدين بالتجهز للمسير معه ، وكان هوى أسد الدين في ذلك وعنده من الشجاعة وقوة النفس مالايبالي بمخافة ، فتجهز وسار مع شاور في جمادى الأولى من سنة تسع وخمسـين ، وأمـره نور الدين بإعادة شاور الى منصـبه ، والانتقـام ممـن نازعه في الوزارة ، فسـاروا جميعا ، وسار معهم نور الدين إلى أطراف بلاد الاسـلام ممـايلي الفرنج بعساكره ليشغلهم عن التعرض لأسد الدين ، فكان ظـن نور الدين صحيحا ، فصار الفرنج لحفظ بلادهم من نور الدين . ووصل

أسد الدين إلى مصر سالما هو ومن معه ، فهرب المنازع لشاور في الوزارة ، وعاد شاور وزيرا وتمكن من منصبه . وأقام أسد الدين بظاهر القاهرة ، وغدر به شاور لما عاد إلى منصبه ، وعاد عن ماكان قرره لنور الدين من البلاد المصرية ولاسد الدين أيضا ، وأرسل إليه يأمره بالعود الى الشام . فاذف اسد الدين من هذه الحال ، وأعاد الجواب يطلب ماكان استقر ، فلم يجبه شاور اليه . فلما رأى ذلك أرسل ذوابه فتسلموا مدينة بلبيس ، وحكم على البلاد الشرقية ، فأرسل شاور إلى الفرنج يستمدهم ويخوفهم من نور الدين إن ملك مصر . وكان الفرنج قد أيقنوا بالهلاك إن ملكها نور الدين فهم خائفون ، فلما ارسل شاور اليهم يستنجدهم ويطلب ان يساعدوه على إخراج أسد الدين من البلاد ، جاءهم فرج لم يحتسبوه ، وسارعوا الى تلبية دعوته والمبادرة الى نصرته ، وطمعوا في ملك ديار مصر ، وكان قد بذل لهم مالا على المسير اليه ، فتجهزوا وساروا ، فلما بلغ نور الدين خبر تجهيزهم للمسير ، سار بعساكره الى طرف بلاده مما يلي الفرنج ليمتنعوا عن المسير ، فلم يمتنعوا ، لعلمهم أن الخطر في مقامهم إذا ملك أسد الدين مصر ، أشد من الخطر في مسيرهم ، فتركوا في بلادهم من يحفظها ، وسار ملك القدس في الباقين الى مصر ، وكان قد وصل إلى الساحل جمع كثير من الفرنج في البحر لزيارة البيت المقدس ، فلما قارب الفرنج مصر ، فارقها أسد الدين وقصد مدينة بلبيس ، وأقام بها هو وعسكره وجعلها ظهرا له يتحصن به ، فاجتمعت العساكر المصرية والفرنجية ، ونازلوا أسد الدين بمدينة بلبيس وحصروه بها ثلاثة اشهر ، وقد أمتنع بها أسد الدين ، وسورها من طين قصير جدا وليس لها خندق ولا فصيل يحميها ، وهو يغاديهم القتال ويراوحهم ، فلم يبلغوا منه غرضا ولانالوا منه شيئا . فبينما هم كذلك ، أتاهم الخبر بهزيمة الفرنج بحارم وملك نور الدين الحصن ومسيره إلى بانياس ، فحينئذ سقط في ايديهم ولات حين مناص ، فأراد الفرنج العود إلى بلادهم ليحفظوها ، ولعلهم يدركون بانياس قبل أخذها ، فلم يدركوها الا وقد ملكها على مانذكره إن شاء الله تعالى وراسلوا

أسد الدين في الصلح والعود إلى الشام ومفارقة مصر وتسليم مابيده منهـا الى المصريين ، فـاجابهم الى ذلك لأنه لم يعلم بمـا فعله نور الدين بالفرنج في الساحل ، فحدثني من رأى أسد الدين حين خـرج من بلبيس ، قال : رأيته وقـد أخـرج أصـحابه بين يديه وبقـي في أخرهم ، وبيده لت حديد يحمـي سـاقتهم ، والمسـلمون والفـرنج ينظرون . قال : فأتاه افرنجي من الفرنج الغرباء ، فقـال له : أمـا تخاف أن يغدر بك هؤلاء ـ المسلمون والفرنج ـ وقد أحاطوا بك فلا يبقى لك معهم بقية . فقال شيركوه : ياليتهم فعلوا حتـى كنت تـرى مالم تر مثله ، كنت والله أضع السيف ، فلا يقتل منا رجل حتى يقتل رجالا ، وحينئذ يقصدهم الملك العادل نور الدين ـ وقد ضعفوا وفني أبطالهم ـ فيملك بلادهم ويملك من بقي منهـم ، ووالله لو أطـاعني هؤلاء ـ يعني أصحابه ـ لخرجت إليكم أول يوم ، لكنهم امتنعوا . فصلّب الفرنجي على وجهه ، وقال : كنا نعجـب مـن فـرنج هـذه الديار ، ومبالغتهم في صفتك وخوفهم منك ، والان فقد عذرناهم . ثم رجع عنه ، وسار شيركوه إلى الشام وعاد سالما .

## في ذكر فتح حصن حارم من الأفرنج

في هذه السنة في رمضان ، فتح الملك العادل نور الدين قلعة حارم وملكها من الفرنج ، والسبب في هـذا الفتـح ، أن نور الدين لما عاد منهزما على ماذكرناه قبل ، أقبل على الجد والاجتهاد ، والاستعداد للجهاد ، والأخذ بثـاره ، وغزو العـدو في عقـر داره ، وليرفـو ذلك الخرق ، ويرتق ذلك الفتق ، ويمحو سمة الوهن ، ويعيد رونق الملك ، فراسل أخاه قطب الدين بـالوصل ، وفخـر الدين قـرا أرسـلان بالحصن ، ونجم الدين ألبي بماردين وغيرهم من أصحاب الاطراف يستنجدهم .

فاما قطب الدين أتابك ، فانه جمع عساكره وسـار مجـدا وعلى مقدمة عسكره زين الدين نائبه ، واما فخر الدين قرا أرسلان فبلغني

عنه أنه قال له ندماؤه وخواصه : على أي شيء عزمت ، فقال : على القعود ، فإن نور الدين قد تحشف من كثرة الصوم والصلاة ، فهو يلقي نفسه والناس معه في المهالك . فكلهم وافقه على ذلك ، فلما كان الغد ، أمر بالنداء في العسكر بالتجهز للغزاة . فقال له اولئك : ماعدا مما بدا ، فارقناك بالامس على حال بدا الآن ضدها ؟ .

فقال : إن نور الدين قد سلك معي طريقا ، إن لم أنجده ، خرج أهل بلادي عن طاعتي ، وأخرجوا البلاد عن يدي ، فإنه كاتب زهادها وعبادها والمنقطعين عن الدنيا ، يذكر لهم مالقي المسلمون من الفرنج ، ومانالهم فقد قعد كل واحد من أولئك ومعه أتباعه وأصحابه ، وهم يقرؤون كتب نور الدين ويبكون ، ويلعنوني ويدعون علي ، فلا بد من إجابة دعوته ، ثم تجهز أيضا وسار إلى نور الدين بنفسه .

وأما نجم الدين فانه سير عسكرا ، فلما اجتمعت العساكر سار نحو حارم ، في كل بطل بسلاحه شاكي ، ولشدة المراس غير شاكي ، ( كما ) يقول ( الشاعر ) :

في كل اروع يرتاع المنون له
إذا تجرد لانكس ولاجهد

يكاد حين يلاقي القرن من حنق
قبل السنان إلى حوبائه يرد

وكانوا حقا جيش الطواويس( ٩١ ) ، وكل منهم في بيض الحديد وألوان التشاهير يختال ويميس ، وأشرقت عليهم الشمس فرقت لها الأحداق ، وتلألأت الآفاق ، ونزل عليها وحصرها ، وأطار إليها من القسي والمجانيق سهامها وحجرها .

وبلغ الخبر الى الفرنج من بقي منهم بالساحل لم يسر الى مصر ،

فجاءوا في حدهم وحديدهم ، وعدهم وعديدهم ، وقضهم وقضيضهم ، وملوكهم وفرسانهم ، وأساقفتهم ورهبانهم ، قد حشدوا حتى أرباب الصوامع ، ولم يشعروا إنهم رزق الذئاب والخوامع ، وأقبلوا إليه رجالا وعلى كل ضامر ، في كل قرن مساور وبطل مهاصر ، وقد ألف النزال ، واعتاد اقتناص الأبطال ، فهم لكثرتهم من كل حدب ينسلون ، فارتاع لكثرتهم المسلمون . وكان مقدم الفرنج البرنس صاحب انطاكية ، والقمص صاحب طرابلس وأعمالها ، وابن جوسلين - وهو من مشاهير الفرنج وأبطالها ، والدوك - وهو رئيس الروم ومقدمها - وجمعوا معهم من الراجل مالا يقع عليه الاحصاء ، قد ملأوا الأرض وحجبوا بقسطلهم السماء ، فحرض نور الدين أصحابه ، وأطمع فيهم أحزابه ، وفرق نفائس الأموال ، على شجعان الرجال ، فلما قاربه الفرنج رحل عن حارم الى أرتاح ، وهو إلى لقائهم قد أرتاح ، وإنما رحل طمعا أن يتبعوه ، ويتمكن منهم ببعدهم عن بلادهم إذا لقوه ، فساروا حتى نزلوا على « عم» ( ٩٢ ) ، وهو على الحقيقة تصحيف مالقوه من الغم ، ثم تيقنوا أنهم لاطاقة لهم بقتاله ، ولا قدرة لهم على نزاله ، فعادوا الى حارم وقد حرمتهم كل خير ، وحلت اليهم كل وهن وضير ، فلما عادوا عن « عم » تبعهم نور الدين في عساكر المسلمين ، وأبطال الموحدين على تعبئة الحرب ، فلما تقاربوا اصطفوا للقتال ، وتهيأوا للنزال ، وتدانت الخطى ، وكشف الغطا ، وبدأت الفرنج بالحملة على ميمنة المسلمين وبها عسكر حلب وفخر الدين ، فبددوا نظامهم ، وزلزلوا أقدامهم ، وولوهم الأدبار ، وركنوا إلي الفرار وكانت تلك الفرة من الميمنة عن اتفاق ورأي دبروه ، ومكر بالعدو مكروه ، وهو أن يبعدوهم عن راجلهم ، فيميل عليهم من يبقى من المسلمين ويضعوا فيهم السيوف ، ويرغموا منهم الأنوف ، فإذا عاد فرسانهم من أثر المنهزمين ، لم يلقوا راجلا يلجأون اليه ، ولا وزرا يعتمدون عليه ، ويعود المنهزمون في اثارهم ، يكسعون أدبارهم ، وتأخذهم سيوف الله من بين أيديهم ومن خلفهم ، فيجعل لهم بوارهم وحتفهم . وكان الأمر على مادبر ، والحال على ماقدر ، فإن الفرنج لما تبعوا المنهزمين ، عطف زين الدين في عسكر الموصل على

راجلهم فأفناهم قتلا وأسرا ، وعادت خيالتهم ولم يمعنوا في الطلب خوفا على راجلهم من العطب ، فصادفوا راجلهم على الصعيد معفرين ، وبدمائهم مضرجين فسقط في أيديهم ورأوا أنهم قد ضلوا ، وخضعت رقابهم وذلوا ، فلما رجعوا عطف حينئذ المنهزمون اعنتهم ، وعادوا كرتهم بعد فرتهم ، فبقي العدو في الوسط وقد أحدق بهم المسلمون من كل جانب ، وحمي الوطيس ، وباشر الحرب المرؤوس والرئيس ، وقاتل الفرنج قتال من يرجو باقدامه النجاة ، وحاربوا حرب من ايس من الحياة ، واشتد الزحام ، وعظم اللزام ، وبطل العامل وعمل الحسام ، وانقضت العساكر الاسلامية عليهم انقضاض الصقور على أناث الطيور ، فمزقوهم بددا ، وجعلوهم طرائق قددا ، والقى الفرنج بايديهم إلى الأسار ، وعجزوا عن الهزيمة والفرار ، فاكثر المسلمون فيهم القتل ، وأوردوهم مناهل الفناء والهلك ، فزادت عدة القتلى على عشرة الاف وأما الأسرى فلم يحصوا كثرة ، ويكفيك دليلا على كثرتهم ، أن ملوكهم أسروا ، مثل : البرنس بيمند صاحب انطاكية ، والقمص صاحب طرابلس ، والدوك مقدم الروم ، وابن جوسلين ، وسار نور الدين بعد الكسرة إلى حارم فملكها في الحادي والعشرين من رمضان .

وأشار أصحابه عليه بالمسير إلى انطاكية ليملكها لخلوها ممن يحميها ويدفع عنها ، فلم يفعل ، وقال : أما المدينة فأمرها سهل ، وأما القلعة التي لها فهي منيعة لاتؤخذ إلا بعد طول حصار ، وإذا ضيقنا عليهم أرسلوا إلى صاحب القسطنطينية وسلموها اليه ، ومجاورة بيمند أحب إلى من جوار ملك الروم . وبث سراياه في تلك الأعمال والولايات فنهبوا وسبوا ، وأوغلوا في البلاد حتى بلغوا لاذقية ، وسويدا ( ٩٣ ) وغير ذلك وعادوا سالمين .

ثم إن نور الدين أطلق بيمند صاحب أنطاكية بمال جزيل أخذه منه ، وأسرى كثيرة من المسلمين أطلقتهم .

# في ذكر خبر الوقعة التي جرت في حرب قلعة حارم

قال صاحب التاريخ : وحكى أن السلطان نور الدين الشهيد ـ رحمه الله ـ لما كسرت ميسرة عسكره ، نزل عن فرسه وكشف رأسه وسجد لله عز وجل فسمع يقول : يالهي وسيدي ومولاي ، من محمود عبدك ابن زنكي بن اقسنقر حتى لاتخذله ، إن تنصره تنصر دينك الذي أظهرته لنبيك الذي أرسلته ، استجب دعائي ، وأحسن مذقلبي ومثواي ولاتشمت بي أعدائي ، ولم يزل متضرعا باكيا ، ويقلب وجهه على التراب ودموعه تجري على خديه ، الى أن بلغه الله مراده من خذلانهم ونصره عليهم .

ومن عجائب الاتفاق ، ماحكاه كمال الدين ابن العديم في كتاب «اخبارحلب» أن الزكي أحمد بن مسعود الموصلي المقرىء اخبرني ، قال : كنت الم بعلم الدين سليمان بن جندر ، قال : فاتفق أن خرجت معه إلى حرب حارم في سنة تسع وخمسين وخمسمائة ، وجلست معه تحت شجرة هناك ، ومجد الدين أبو بكر بن الداية ـ داية الشهيد رحمه الله ـ وصلاح الدين يوسف بن أيوب تحت هذه الشجرة نتحدث ، ونور الدين الشهيد يحاصر حارم وهي في أيدي الفرنج ، فقال مجد الدين : أتمنى أن يفتح نور الدين حارم ويعطيني إياها نيابة . فقال صلاح الدين يوسف : أتمنى على الله تبارك وتعالى أن يفتح نور الدين الشهيد مصر ويعطيني إياها . ثم قال : تمن انت ايضا بما تريد ، قلت : يامولاي ، إذا كنت أنت صاحب مصر ومجد الدين صاحب حارم ، ماأضيع بينكما . فقالا : لابد أن تتمنى شيئا ، فقلت : إذا كان ولابد من ذلك ،فأتمنى « عم » ( وبينما ) نحن في الكلام ـ والله تعالى قاض بما أراد في حكمه ـ فقدر الله عز وجل ، أن نور الدين كسر الافرنج وفتح حارم ، وأعطاها مجد الدين بن الداية ، وأعطاني قلعة « عم » ، وقدر الله ، أن أرسل نور الدين الشهيد رحمه الله تعالى ، اسد الدين شيركوه الى مصر وفتح مصر على يده ، ثم آل الأمر إلى أن ملكها صلاح الدين يوسف بن أيوب ، على مانذكر إن شاء الله تعالى

لرحمن في وقته ، وتملك مصر ، والشام ، والشرق والكرك ، واليمن ، وبلاد الشرق وعارض الملوك والسلاطين ، وحاصر القلاع ، وفتح البلاد ، وجند الاجناد ، وهذه الجراكسة التي هي اليوم ملوك مصر والشام ومحامي الحرمين الشريفين ، مماليك نسل وذرية الملك الصالح نجم الدين أيوب ابن السلطان الملك الكامل أبي لمعالي ناصر الدين محمد بن الملك العادل أبي بكر بن أيوب ، أبو الملوك الأيوبية .( ٩٤ )

## وفاة جمال الدين الوزير

في شعبان من سنة تسع وخمسين وخمسمائة ، توفي الوزير جمال الدين محبوسا . وكان له نحو سنة مذ مرض فمضى لسبيله .

وكان عظيم القدر والخطر ، كريم الورد والصدر ، عديم النظير في سعة نفسه . لم يرو في كتب الأولين ، أن أحدا من الوزراء اتسعت نفسه ومروءته ، كما اتسعت له نفس جمال الدين ، فلقد كان عظيم الفتوة ، كامل المروة ، وسيرد من أخباره ماتعلم منها صحة قولي .

حكى لي جماعة عن الشيخ ابي القاسم - وهو رجل من الصالحين ، كان يتولى خدمة جمال الدين في محبسه - قال : لم يزل جمال الدين مشغولا بأمور آخرته مدة حبسه ، وكان يقول : كنت أخشى أن اذقل من الدست الى القبر . قال : فلما مرض ، قال لي بعض الايام : ياأبا القاسم ، إذا جاء طائر أبيض إلى الدار فعرفني ، قال : فقلت في نفسي ، قد اختلط عقله ، فلما كان الغد ، أكثر السؤال عن ذلك الطائر ، وإذا طائر أبيض لم أر مثله قد سقط ، فقلت له : جاء الطائر ، فاستبشر ثم قال : جاء الحق وأقبل على الشهادة وذكر الله تعالى ، وتوفي . فلما توفي طار ذلك الطائر ، قال : فعلمت أنه رأى شيئا في معناه . ودفن بالموصل نحو سنة . وكان قد قال للشيخ أبي القاسم : أن بيني وبين أسد الدين شيركوه